

حمار بوريدان

بقلم السيد محمد رويحي فيصل

...

لعل أشد الأدواء فتكاً في النفوس ، وأكثرها ذبوعاً وانتشاراً ، وأعظمها أضراراً وتلفاً ، هذا الضعف في الإرادة أو التردد في العمل . يقعد المرء عن تحقيق رغائبه وآماله ، ويمسكه عن تنفيذ مشاريعه وخطته ، ويحول بينه وبين الانتاج المتصل الذي يفيد الأمة ويفيد الإنسانية ثم يدفعها نحو المثل العليا الثلاثة : الخير والجمال والحقيقة

ومن العجب أن التردد على شدة فتكه وكثرة ذبوعه وعمق تنفله لا يحسب حساباً ولا يلتفت إليه كأنما هو عرض من هذه الأعراض الهيئته السيرة التي لا قيمة ولا وزن ، أو كأنما هو شذوذ خفيف ضئيل في اتجاه مجرى الإرادة الصحيحة القوية ! ولعمري الحق ما شئ أنكس للرق والمدنية وأدعى إلى الجمود والموت مثل التردد والاحجام « يصيب المرء في حياته العملية فيغل يده ، ويشل عقله ، ويتركه فريسة للألم من ضعفه ، والجليل من صمبه . تظهر أعراضه في صغار الأمور وكبارها ، فيكون في استقاء الثوب واختيار الحالة ، وفي الاقدام على الزيارة القصيرة والرحلة الطويلة ، ويدخل في لذات الرجل وأعماله ، كما يدخل في إداره وإقباله » (١)

أجل ! يكون التردد في زورة الصديق ، وافتتاح الحانوت ، وارتياذ القهي كما يكون في طلب العلم والقوت والمال . وسواء أدخل في حقير الأمور أم جليلها فأنما هو يقف النهضة ، ويبطئ الحركة ، ويعوق عن الجدد والابداع

لقد كشف السيكلوجيون عن نفسية التردد ، وأوضحوا المظاهر المتباينة النيفة التي تطنى عليه وتأخذه بالحيرة والقلق فقالوا إن كل فعل إرادي لا بد أن يجتاز على التوالي أربعة أطوار :

(١) تصور غاية الفعل ، وإدراك المقصود من تحقيقه

(٢) طور الموازنة والمفاضلة . ذلك بأن كل فعل إرادي له بواعث عقلية وجدانية تحلقها الأهواء والميول ، وتنفيذها المواطن

والنزعات ، وتنمبها الشاعر والأحاسيس . وعوامل عقلية ذهنية مصدرها المنطق والمحاكمة والمعرفة . فالمرء في هذا الطور يوازن بين البواعث العقلية والعوامل العقلية ويتأصل بينهما ، ويقوم بعملية حساية يزن بها قيمهما

(٣) طور التقرير ، وذلك أن المفاضلة بين البواعث والعوامل لا بد أن تسفر عن نتيجة هي حل الفعل وتقريره

(٤) طور التنفيذ — والتنفيذ تاج يزين هام الفعل الارادي ، ويتم محاسنه

شاء بعضهم أن يحذف من هذا التقسيم طور التنفيذ لأن الفعل الارادي في نظره غير مرتبط من الوجهة النفسية بالتنفيذ أو عدمه . على أنه ينبغي أن يكون ثمة بدا : في تحقيق الفعل واتجاه نحو العمل . لذلك قلنا إن التنفيذ « تاج يتم محاسن الفعل الارادي ويزين هامته »

فالتردد إما يكون في الطور الثاني ، طور الموازنة والمفاضلة . والتردد إما تتجاذبه البواعث والعوامل ، يوازن بينهما ويفاضل بين قيمهما ثم لا ينتهي من موازنته ومفاضلته ، ولا يضع حداً لهذا الاضطراب والتفوضى . تناجيه بواعث القلب فتتغيا ظلاله ويطلن الى أفئانه ، ثم لا تلبث عوامل العقل أن تخرجه من طائنته وتغزو نفسه كلها . فهو ساحة حرب ما تنكاد البواعث العقلية تنتصر فيها حيناً إلا لتتخذل وتراجع أمام قوة العوامل العقلية ، وشدة منعتها ، وعظمة سلطانها

هكذا كتب الله على التردد أن يقف بين بين ، لا يقرر ولا يتخذ وإنما يخضع لطائفة من الاعتبارات النفسية المتعاكسة . وهذه الاعتبارات قد تنشأ عن خصب في الخيال ، وسعة في المعرفة ، وقوة في التفكير . وقد تنشأ عن تيقظ في الحيوية الانفعالية ، واشتداد في الميل والهدوى . وتدفع في الرغبة والعاطفة ومهما يكن منشأ هذه الاعتبارات القوية فإن التردد عضو أشل « يعيش على هامش المجتمع البشري » كما يقول الدكتور بلوندل

قد تسأل بعد هذا : إذا كان الأمر ما تقول فما شأن الحيوان هنا ؟ ومن يكون بوريدان هذا ؟ وما هي العلاقة التي تصل عالم النفس الانسانية بعالم « الحمار » ؟؟

(١) راجع « التردد » في المدد الخامس من الرسالة

الحق إنه سؤال وجيه ممن لا يعرف وجه الاتصال والتقارب.

فأما بوريدان فهو فيلسوف من فلاسفة اللاهوت والدين المسيحي في المصور الوسطى، ولد في مدينة بيتون من أعمال فرنسا الشمالية وتوفي عام ١٣٦٠ ميلادية. ينتسب إلى مدرسة «السكولاستيك» الشهيرة بالجدل الديني والتفكير النقي، والتي من رجالها «روجر باكون» و«القديس بونا فانتير» و«دورسكوت». وأما الحمار فقد شاء بوريدان أن يوضح «حرية الاختيار» في الحياة والنفس بتشبيه طريف ومثل قريب فافترض وجود حمار جائع ظمآن على مسافة معينة واحدة من إماء فيه ماء عذب، ومعلق فيه تبن وشعير... وطلق الحمار يفكر على جوعه وظمئه بأي الأمرين يبدأ: أعلاً بطنه أولاً أم يروى ظمأه؟ فما يكاد يتجه نحو الماء مثلاً حتى يكتفى راجعاً نحو التبن والشعير!! وقد كان في وسعه أن يختار الذي يريد وطمع ما بهوى، ولكن الحمار السكين يقي يفكر على ذلك النحو من المنطق العقيم حتى سقط جثة هامدة، ومات جوعاً وظمأ!!

هذه القصة الموجزة الخيالية تصور، غير حرية الاختيار، طبيعة التردد وعاقبة التردد. فأما طبيعة التردد فقد شرحناها من الناحية النفسية، وأما عاقبة التردد فهي كما رأيت: الفناء والموت. ذلك بأن الحياة تتطلب السرعة والحركة والعمل لا الجمود والاحجام. وكل من لا يس الحياة وخاض غمارها قائماً يبنى له أن يعمل ويعمل، لا يابه بالوانع والصعوبات التي قد يصادفها في طريقه وتتمثر بها رجلاه، وإلا فإن مصيره المحتوم التخلف عن الحياة، والانحدار نحو التفكك والانحلال. يذهب غويو Guyau إلى أن العمل المستمر أو التفاعلية الشديدة إنما يجب أن تكون المثل الأعلى في الأخلاق، لأن الحياة ليست تردداً ومحاسبة وإنما هي عمل وإنتاج. *Vivre, ce n'est pas calculer, c'est agir.*

ولسنا نحب هنا أن نعيد التفاعلية الشديدة بالخيرية والشرية، وإن شئت فقل إننا لن نعترض للخيرية والشرية في صدد الحث على التفاعلية الشديدة والجهد الدائم.

وعلم الأخلاق الحديث المبني على التجربة والملاحظة يأبى ذلك وينفر منه كل النفور. فما يدرينا أن الأمر الذي نحكم بخيريته وشره غاية يصبح شرأ كله إذا نحن طبقناه ومارسناه في الحياة

العملية. فالخيرية التي نخلعها على طائفة من الأمور دون أخرى هي خيرية سابقة للتجربة ومتقدمة على للملاحظة. فلنزاوِل إذن كل الأمور ولننتصل بكل شيء، ولتكن حياتنا ملأى مستفيضة الجوانب، متصلة الحركة، قوية الإرادة

والإرادة العاملة المحركة هي بكنه الوجود وأس الكون كما يقرر شوبنهاور^(١) لاذ يعتقد أن الأحياء جميعاً محكومون بإرادة باطنية لا شعورية عمياء، دائبة الهمة والنشاط، متجددة الشهوة والرغبة، تسيطر على الفكر والعقل سيطرة عظمى.

إن صاحب الإرادة القوية سيد عواطفه وآرائه، فرغائبه تنقلب آناً إلى إرادة قاعلة، ليس يعرف المستحيل ولا يقر بوجوده في قاموس الأعمال!!

وبعد. ما دواء التردد؟ وكيف السبيل إلى الشفاء من هذا الداء؟ ذكر أطباء النفس طائفة من العلاجات الناجعة، منها ماهو لدواة الجسم ومنها ماهو لدواة الروح: يبنى قبل كل شيء ترويض الأعضاء وتقوية الحواس وامتلاك الصحة لأن للإرادة أساساً عضوياً، ولستنا نبالغ إذا قلنا إن قوة المضلات هي الصورة الأولية الابتدائية لقوة الإرادة. فالمرضى لا يستطيع تحقيق أمانيه لأن جسده قار العزم خائر القوى، وينبني الطاعة وحس النظام، فالطفل إذا أطاع غيره قائماً يتعلم كيف تكون السيادة على الذات وقهر النفس، وهنا قد يكون للأسرة والمدرسة الأثر البالغ في ذلك كذلك يبنى تثقيف العقل وتهذيب الشعور. أما تثقيف العقل فيكون بالتفكير الصحيح، والانتباه الثابت، وتصور غاية الفعل بصورة محسوسة مسهبة، وإدراك مختلف المذاهب والنحل. وقد قال ديكارت «إن الإرادة القوية في العمل تقتضي وضوحاً شديداً في العقل». وأما تهذيب الشعور فيكون بالليل إلى المثل العليا الانسانية، والاعتدال في الحب والهوى بحيث لا تظني البواعث القلبية على العوامل العقلية فتجري الموازنة في جو هادئ. ثم تسفر عن التقرير والتنفيذ ويسلم المرء مما وقع فيه حمار بوريدان!!

محرم رزمي فيصل

محرم

(١) راجع الصفحات الأولى من كتابه «العالم وإرادة»